﴿سورة الغاشية﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: ما الغاشية ولم سميت بذلك ؟

والجواب: الغاشية اسم فاعل على وزن فاعلة من الفعل الثلاثى غشى، وقيل: فى معنى الغاشية إنهااسم من أسماء يوم القيامة، وقيل: هى اسم من أسماء نار جهنم، فأما أنها من أسماء يوم القيامة فإنه لا يخفى على أحد أن للقيامة أسماء متعددة مذكورة فى القرآن الكريم كالقارعة، والصاخة، والطامة، والحاقة، والغاشية، والساعة، ويوم الآزفة، ويوم التناد، يوم الحسرة، ويوم التغابن، ويوم الخروج، ويوم الوعيد، وغيرها من الأسماء التى تدل على شرف المسمى وعظيم خطره، وقدسميت القيامة بالغاشية لأن ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له والقيامة كذلك لأنها ترد على الخلق بغتةً،كما أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين، والقول الثالث إنها تغشى الناس بالأهوال.

أما من قال إن الغاشية هى اسم من أسماء نار جهنم، فقد سُميت النار بالغاشية لأنها تغشى وجوه الكفرة وأهل النار، قال تعالى: ﴿**وَتَغشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠)**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَاد وَمِن فَوقِهِمۡ غَوَاش**﴾[2] وهناك قول يرى أن الغاشية تدل على أهل النار لأنهم يغشونها ويقعون فيها .

المسألة الثانية: فى قوله ﷻ :﴿وُجُوه يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَة نَّاصِبَة (٣) تَصلَىٰ نَارًا حَامِيَة(٤)﴾ كيف تكون هذه الوجوه عاملة ناصبة ثم تصلى فى النهاية ناراً حامية ؟

والجواب: إن هذه النفوس هى نفوس الكفار وأهل الضلال المستحقة للعذاب يوم القيامة وأما كونها عاملة ناصبة ثم تصلى ناراً حامية ، ففيه وجوه :

---

(١) سورة إبراهيم / من الآية ٥٠ .
(٢) سورة الأعراف / من الآية ٤١ .

إما أن تكون هذه النفوس والأبدان قد اجتهدت فى الأعمال لكنها عملتها على غير شرع الله أو من غير إخلاص فى العمل فتعبت من غير فائدة ورُدَّت عليها وأُحبط ثوابها، ولذا اشترط العلماء لقبول العمل شرطين وهما موافقة الكتاب والسنة والإخلاص فيه، وبدون أحدهما أو كليهما لا يقبل العمل بل يُرد على صاحبه، فهذا الشرطان للعمل كالجناحين للطائر لا يرتفع فى السماء إلا بهما وبدون أحدهما يسقط ويقع.

وتنطبق هذه الآيات على الرهبان والأحبار الذين أعرضوا عن الدخول فى الإسلام وانعزلوا عن الناس فى الصوامع والبِيَع طلباً لعبادة الله، فصاموا نهارهم، وسهروا ليلهم، وأتعبوا أبدانهم، لكنهم فى كفر وضلال؛ ويوم القيامة هم من أهل النار؛ يصلون فيها ناراً حامية مع ما بذلوه فى الدنيا من نصب وتعب.

أورد القرطبى أنه (لما قدم عمر بن الخطاب ﷺ الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل[1]، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك ؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله ﷻ: ﴿**عَامِلَة نَّاصِبَة (٣) تَصلَىٰ نَارًا حَامِيَة(٤)**﴾)[2]، أو أن تكون هذه الآيات وصفاً لحال أهل النار فى عذابهم يوم القيامة، فهى (تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرها السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صَعودٍ من نار، وهبوطها في حدور منها)[3]، (قال سعيد عن قتادة: ﴿ **عَامِلَة نَّاصِبَة (٣)**﴾ قال: "تكبرت في الدنيا عن طاعة الله ﷻ، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقال، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وقال الحسن وسعيد بن جبير: لم

(١) التقهل: رثاثة الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سئ الحال، مثل المتقحل.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٧/٢٠ .
(٣) الكشاف ٧٤٤/٤ .

تعمل لله في الدنيا ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم، وقال الكلبي: يُجرُّون على وجوههم في النار) [1].

المسألة الثالثة: بم وصفت الآيات شراب وطعام أهل النار؟ ولم قُدِّم ذكر الشراب على الطعام؟

الجواب: أوردت الآيات وصف شراب أهل النار وطعامهم فقال: ﴿**تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)**﴾، فشرابهم الحميم الآنى، أى الذى بلغ الغاية فى الحرارة، قال ابن منظور: (وأنى الحميم أي انتهى حره، ومنه قوله تعالى: ﴿**حَمِيمٍ ءَانٍ(٤٤)**﴾)، وفي التفاسير: ﴿**مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ(٥)**﴾" أي تناهى حرها، فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت.

ولما ذكر الله ﷻ شراب أهل النار ذكر طعامهم؛ فأما طعامهم فهو محصور مقصور على الضريع، وهو عند عامة المفسرين: "نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه"، وهذا القول هو جماع أقوال المفسرين مع اختلاف يسير فى وصف الضريع .

بيد أن القارئ للقرآن يتوقف عند ذكر القرآن مسمى آخر لطعام أهل النار ألا وهو (الغسلين) وذلك فى قوله ﷻ:﴿**وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ(٣٦) لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ (٣٧)**﴾[2]، وقال هنا فى (سورة الغاشية): ﴿**لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ(٦)**﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع بينهما أن النار دركات، فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم مَن طعامه الغسلين، ومنهم مَن طعامه الضريع، ومنهم مَن شرابه الحميم، ومنهم مَن شرابه الصديد، قال الكلبي: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة أخرى) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٧/٢٠ .
(٢) سورة الحاقة / الآيتان ٣٦-٣٧.

المسألة الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ وصِفت الجنة فى هذه الآيات بأوصاف ... فما معناها ؟

الجواب: وصفت الآيات الجنة بسبع أوصاف :

أولاها: بأنها عالية أى مرتفعة ، قال ابن عاشور: (لزيادة الحسن لأن أحسن الجنات ما كان في المرتفعات، قال تعالى: **﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾**[١])[٢]، وقيل وصف الجنة بالعالية لا يقتصر به العلو الحسى المكانى فقط، بل يشمل العلو بمعنى الرفعة والرقى، فهى عالية القدر رفيعة الشأن ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثانيها: أنك لا تسمع فيها شيئاً يؤذى سمعك، فاللاغية مصدر بمعنى اللغو من الكلام الذى لا فائدة منه ولا نفع فيه، (وهذا تنبيه على أن الجنة دار جد وحقيقة، فلا كلام فيها إلا لفائدة؛ لأن النفوس فيها تخلصت من النقائص كلها فلا يلذ لها إلا الحقائق والسمو العقلي والخلقي، ولا ينطقون إلا ما يزيد النفوس تزكية) [٣] .

ثالثها: ﴿فِيهَا عَين جَارِيَة (١٢)﴾ أى أن عيونها تجرى من غير توقف وهذا أدعى لنقاوة مائها وحسن شرابها، فإن الماء الجارى أنظف وأطيب من الراكد .

رابعها: ﴿فِيهَا سُرُر مَّرْفُوعَة (١٣)﴾ السرر جمع السرير وقد وصفت بأنها مرفوعة أى (رفيعة السمْك أو المقدار ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوّله ربُّه من المُلك والنعيم)[٤]، فالرفع هنا رفع قدر ومكان وحال .

---

(١) سورة البقرة / من الآية ٢٦٥.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٦٥.
(٣) المرجع السابق ٣٠/٢٦٦.
(٤) البحر المديد ٨/٤٥٠.

خامسها: ﴿وَأَكوَاب مَّوْضُوعَة(١٤)﴾ الفرق بين الكوب والكوز أن الكوب من غير عروة يمسك بها الشارب، على عكس الكوز، (وهى أكواب موضوعة أى مُعدَّة للشرب فهى موضوعة على حافة العيون الجارية كلما أراد أهل الجنة الشرب وجدوها مملوءة بالشراب، وقيل بل هى موضوعة فى أيديهم لا يتركونها لفرط حسنها وجمالها لكونها من ذهب أو فضة أو من جوهر وكونهم يتلذذون بالشرب منها، وقيل موضوعة أى موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر كقوله:﴿**قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّة قَدَّرُوهَا تَقدِيرا (١٦)**﴾[١])[٢] .

سادسها: ﴿وَنَمَارِقُ مَصفُوفَة(١٥)﴾ وهى الوسائد، ومفردها نمرقة أى وسادة، وهى وسائد مصفوفة أى مرتبة واحدة إلى جنب الأخرى، بحيث إذا أراد الواحد أن يجلس جلس على نمرقة منها وأسند ظهره على أخرى وتوسد ثالثة، وهذه الوسائد مصفوفة مرتبة سلفاً بحيث لا يحتاج المؤمن إلى بذل جهد فى ترتيبها وإعدادها للجلوس عليها .

سابعها: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبثُوثَةٌ(١٦)﴾ جمع زربية وهى البسط التى تُفرَش على الأرض، ومبثوثة أى منتشرة فى المكان كله ومتفرقة فى المجلس، (وقيل: بعضها فوق بعض، قاله عكرمة، وقيل: كثيرة، قاله الفراء)[٣] .

المسألة الخامسة: لم حثت السورة الإنسان على التدبر فى خلق الإبل دون غيرها من الحيوانات ؟

الجواب: استدلت الآيات بعظيم إبداع الله فى خلقه بالإبل دون غيرها من الحيوانات، وذلك لأمور، منها:

أولاً: أن الإبل هى من أنفَس أموال العرب وكرائمها حيث تفاخروا بجمالها وتكاثروا بامتلاكها، وقد يرى البعض أن الفيل فيه من العجب ما يضاهى البعير لكن الله ﷻ ذكر الإبل دون الأفيال لأن الأفيال لم تكن

(١) سورة الإنسان / من الآية
(٢) راجع مفاتيح الغيب ١٤٢/٣١ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٤/٢٠ .

موجودة فى بلاد العرب، وليس لهم بها معرفة؛ ولذا خافوا من جيش أبرهة وهابوه لما جعل الفيل فى مقدمة جيشه، ونزلت سورة من القرآن باسمه، فضلاً عن أن البعير يُؤكل لحمه ويُشرب لبنه ويُستخدَم وبره وهو ما لا يتوافر فى الفيل.

ثانياً: اجتمعت فى الإبل قوة الخلقة وسهولة الانقياد قال ابن كثير: (فإنها خَلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة،وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف)[1] قال القرطبى: (ثم ذكر الإبل أولاً؛ لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيمٍ من خلقه قد سخرها الله للصغير، يقوده، وينيخه، وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهوبارك؛ فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره. فأراهم عظيماً منخلقه، مسخَّراً لصغير من خلقه ليدلهم بذلك على توحيده وعظيم قدرته .

ثالثاً: وإذا نظرنا إلى أوجه الإعجاز الإلهي في خلق الإبل، والتي جعلت القرآن الكريم يدعونا إلى النظر في عظمة هذا الخلق البديع نجد أن قدرة الله ﷻ وحكمته تتجلى في كل جزء من أجزاء جسم الجمل، والتي تتمثل فيما يلي:

١- خُفُّ الجمل الموجود في نهاية القدم مخلوق بصورة بديعة، حيث يتألف من أصبعين اثنتين لكل منهما ظفر مفلطح كبير، وتحتهما وسادة عريضة من جلد لحمي؛ تُيَسِّر للجمل السير السهل على الأرض الصخرية الزلقة أو الرمال المتحركة دون أن تغوص القدم فيها، والتي تتميز بها طبيعة الصحارى والجبال، خاصة وأن الجمال تحمل أوزاناً ثقيلة إلى جانب وزن جسمها الضخم، والوبر الموجود على الخف يساعد الجمل على تحمل حرارة الأرض الرملية، كما أن أخفاف البعير كلها مواد عازلة

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٧/٨.

للكهرباء تحميه من الصواعق الكهربائية التي تحدث بين السحب، وارتفاع الجمل يصل إلى نحو المترين من عند الكتفين، ويرجع ذلك إلى طول أرجلها التي تبعد جسمها عن سطح الأرض لتتقي حرارتها.

٢- وجه الجمل طويل بارز، وأنفه يشبه الشق، يفتحه الجمل ويغلقه حسب ظروفه، وهذا يساعده على منع دخول الرمال في أنفه عند أكله لطعام موجود على الرمال. كما أن شفة البعير العليا غليظة حساسة ومشقوقة إلى نصفين ليتمكن من تحريكهما ورفعهما إلى أعلى ليتحاشى أذى النباتات الشوكية عندما يتناولها فلا تلحق به ضررًا.

٣- وعينا الجمل تنفتحان بزاوية مائلة تغطيها رموش طويلة وتستقران داخل تجويف قوي، ولعينيه أجفان طويلة جدًا، وبهذه الصفات يستطيع الجمل مقاومة العواصف الرملية.

٤- ومن عجائب خلق الله في الجمل أن الأنف ينفتح وينغلق متى شاء البعير، وفتحته محسوبة بمقدار، وهو عبارة عن مصفاة هواء من النوع الممتاز الدائم، كما أن في أنفه جهازًا عجيبًا يسمى جهاز التيار العكسي الذي يساعده على الاقتصاد الشديد في ضياع ماء البدن أثناء التنفس، حيث يتفرد الجمل بأن الغشاء المخاطي في أنفه جاذبٌ للرطوبة، فالهواء الذي يدخل أنف الجمل جافًا يتشبّع بالرطوبة التي يهبها له غشاء الأنف، حتى إذا مرّ بالأنف وهو خارج عاد غشاء الأنف فاجتذب جلّ ما فيه من ماء بحيث لا يضيع من ماء جسمه إلا النزر اليسير، وكلما اشتد القيظ (شدة الحر) ازداد جذب غشاء الأنف للرطوبة واقتصاده في الماء.

٥- أما سنام الجمل فهو مستودع ضخم للشحم يفيده وقت الحاجة، وهو كتلة من أنسجة دهنية ومياه مُستقلبة (متحولة) عن مواد أخرى، وبذلك يكون السنام مستودعًا للماء والغذاء معًا!!ومن حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أيحيوان آخر، ويكفي

دليل على ذلك أن نقارن بين الجمل والخروف المشهور بإليته الضخمة المملوءة بالشحم، فعلى حين نجد الخروف يختزن زهاء ١١كجم من الدهن في إليته، نجد أنالجمل يختزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف (أي نحو ١٢٠ كجم)، وهي كمية كبيرة بلا شك يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثاني أكسيد الكربون.

ولذا يتميز الجمل بقدرة هائلة على البقاء بدون ماء لفترة طويلة؛حتى أنه يستطيع أن يقضي حوالي شهراً ونصف بدون ماء يشربه، ولكن آثار العطش الشديد تصيبه بالهزال وتفقده الكثير من وزنه، وبالرغم من هذا فإنهيمضي في حياته صلداً لا تخور قواه إلى أن يجد الماء العذب أو المالح فيعب منهعباً حتى يطفئ ظمأه كما أن الدم يحتوى على أنزيم البومين بنسبة أكبر مما توجد عندبقية الكائنات وهذا الإنزيم يزيد في مقاومة الجمل للعطش وتعزى قدرة الجمل الخارقةعلى تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح فيبول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم.

ومن العجيب أيضاً أن الجمل لا يقتصد في الماء فحسب، لكنه يولد الماء أيضًا!، فقد زوده الخالق سبحانه بجهاز لتوليد الماء، حيث تتفكك الشحوم المتراكمة في سنام الجمل إلى محاصيل نهائية، من أهمها الهيدروجين الذي لا يلبث أن يتحد بالأوكسجين الآتي مع هواء التنفس فيؤلفان "الماء" الذي يحتاجه الجمل.

٦- رقبة الجمل الطويلة ليست عبئًا عليه، فهي تتحرك وتلتف في كل اتجاه بكل سهولة ويسر، وتساعد الجمل على الوصول إلى أغصان الشجر المرتفعة، وتمكنه من الأعشاب والحشائش على سطح الأرض، ويضع رأسه على جسمه عندما تشتد الرياح ليتقي شدتها وما تحمله من تراب وغبار.

٧- الإبل تتعايش مع ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة فلديها منظم بيولوجي للحرارة يساعدها في السيطرة على درجة الحرارة والبقاء على قيد الحياة رغم التذبذب الشديد في مستوى بلازما الدم، ففي الشتاء يكثر الوبر ويتلبد على جسمه فيقيه ويحميه من البرد، وفي الصيف يسقط الوبر لتتم عملية التبريد بالتعرق، فالعرق يخرج من مسام الجسم بدقة محسوبة، ويتحكم الجمل في درجة حرارة جسمه حسب ظروف الجو مما يمكنه من العيش في الصحراء وتحمل تقلبات الجو المختلفة.

٨- والجمل ليس له مرارة مما يساعده على تناول كميات كبيرة من الغذاء ولساعات طويلة، وهذه الخاصية تساعده على تكوين كميات كبيرة من احتياجات الشحوم والدهون، وبصفة خاصة في السنام لتساعده على تحمل الظروف الشاقة في مواسم الجفاف والمجاعة.

٩- وإذا نظرنا إلى الجمل باعتباره وسيلة للسفر والترحال وحمل الأثقال والأمتعة، سنجد أن الجمل هو الحيوان الوحيد الذي يستقر عليه الهودج أو المحمل، لأن جسم الجمل في المشي شبه مستقر لكونه يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف ولا تتحرك سوى قوائمه بحركة متوازية، ويمتص الجسم ضربات الأرجل على الأرض فلا يحس الراكب إلا بالتمايل فقط، لذلك تسهل إقامة الهودج على الجمل، ولا يمكن هودجة الحصان أو البغل.

١٠- أضف إلى ذلك إلى أن الجمل وحين يبرك للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلدقوي سميك على مفاصل أرجله، ويرتكز بمعظم ثقله على كله، حتى أنه لو جثم به فوقحيوان أو إنسان طحنه طحناًو هذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بهاعلى هذا الحيوان العجيب، حيث إنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له فلا يبالى بها ولا يصيبه منها أذى، والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزوداً

بهذه الوسائد المتغلظة، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة.

١١- مقارنة بين قدرات الإبل والإنسان:

ولعل في المقارنةبين بعض قدرات الإبل والإنسان ما يزيد الأمر إيضاحاً بالنسبة لنموذج الإبل الفريد في الإعجاز فقد أكدت تجارب العلماء أن الإبل التي تتناول غذاءً جافاً يابساً يمكنها أن تتحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف لمدة أسبوعين أو أكثر، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف تصيبها بالهزال لدرجة أنها قد تفقد ربع وزنها تقريباً في خلال هذه الفترة الزمنية؛ ولكي ندرك مدى هذه المقدرة الخارقة نقارنها بمقدرة الإنسانالذي لا يمكنه أن يحيا في مثل تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين؛ فالإنسان إذا فقد نحو ٥% من وزنه ماء فقد صوابه حكمه على الأمور، وإذا زادت هذه النسبة إلى ١٠% صُمَّت أذناه وخلط وهذى وفقد إحساسه بالألم (وهذا من رحمة الله به ولطفه فيقضائهأما إذا تجاوز الفقد ١٢% من وزنه ماء فإنه يفقد قدرته على البلع وتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه .

وعند إنقاذ إنسان أشرف على الهلاك من الظمأ ينبغي على منقذيه أن يسقوه الماء ببطء شديد تجنباً لآثار التغير المفاجئ في نسبة الماء بالدم؛ أما الجمل الظمآن إذا ما وجد الماء يستطيع أن يعب منه عباً دون مساعدة أحد ليستعيد في دقائق معدودات ما فقد من وزنه في أيام الظمأ .

وثمة ميزة أخرى للإبل على الإنسان، فإن الجمل الظمآن يستطيعأن يطفئ ظمأه من أي نوع وجد من الماء حتى وإن كان ماء البحر أو ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة، وذلك بسبب استعداد خاص في كليتيه لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده على الدم، أما الإنسان الظمآن فإنه أية محاولة لإنقاذه

بشرب الماء المالح تكون أقرب إلى تعجيل نهايته، وأعجب من هذا كله أن الجمل إذا وضع في ظروف بالغة القسوة من هجيرالصحراء اللافح فإنه سوف يستهلك ماءً كثيراً في صورة عرق وبول وبخار ماء مع هواء الزفير حتى يفقد نحو ربع وزنه دون ضجر أو شكوى . والعجيب في هذا أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه ولم يستنفذ من ماء دمه إلا الجزء الأقل، وبذلك يستمر الدم سائلاً جارياً موزعاً للحرارة ومبدداً لها من سطح جسمه، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعاً فجائياً لا تتحملها أجهزته، وخاصة دماغه، وفي هذايكون حتفه.

وكل ما ذكره العلم الحديث غيض من فيض وقليل من كثير فى جوانب القدرة الإلهية والإعجاز الربانى فى خلق الإبل، وقد صدق الله ﷻ حين قال: **﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلعِلمِ إِلَّا قَلِيلا (٨٥)﴾**[1].

المسألة السادسة: ما الدرس المستفاد للدعاة إلى الله ﷻ من قوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (٢١) لَّستَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ (٢٢) ﴾ ؟

الجواب: هذا أمر من الله ﷻ لكل الدعاة إليه – متمثلين فى شخص سيد الدعاة ﷺ أن يثبتوا على درب الدعوة وتذكير الناس بالله ﷻ وتعليمهم شريعته، وهذا دورهم فعليهم الدعوة وليس عليهم إدراك النتائج ولا إدخال نور الهداية إلى القلوب، فإن هداية القلوب بيد خالقها، ولذا فيجب على الداعية ألا يحزن وألا ييئس إذا لم تنجح دعوته مع بعض الناس؛ وليجرب مع غيرهم عسى الله أن يفتح به قلوباً غُلفاً وأعيناً عمياً وآذانا صماً .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات قد نزلت قبل نزول آيات القتال، فلما نزلت آيات القتال نسختها، لكن الإمام الزركشى صاحب البرهان رد على هذه الأقوال، فقال: (يتبين لنا ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف؛ وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما

---

(١) سورة الإسراء / من الآية ٨٥ .

لعلة توجب ذلك الحكم؛ ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ؛ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً)[1].

ثم قال: (وهو سبحانه وتعالى حكيم أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقةً، فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية إن كانوا أهل كتاب أو الإسلام، أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب، ويعود هذان الحكمان – أعني المسألة عند الضعف والمسايفة عند القوة – بعود سببهما وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة بل كل منهما يجب امتثاله في وقته)[2].

والمراد أن هذه الآيات ليست منسوخة، فإن نسخها يعنى إبطال حكمها إلى يوم القيامة، فحكمها ما زال موجوداً ويصلح للأخذ به فى مثل الظرف والحالة التى نزلت فيها هذه الآيات؛ ألا وهى حالة الضعف وتسلط الكفار على المسلمين .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢ / ٤٣ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ٤٣ .